اتنوغرافيا كورونا الإيرانية

نعمت الله فاضلي*

«إنّ الأمراض الوبائية والذاتية أمران لا يمكن للبشر التغلب عليهما»
(فرانك اسنودن)

مقدمة

لا نتوقع من الذي يكتب حول جائحة كورونا وأزمتها أن يشرح لنا المبادىء المعرفية والمنهجية. إذ، يجب عليه أن يتحدّث مباشرةً عن تجربته ويشرح الوضع الراهن وما هي القضايا والمسائل التي يواجهها ومنخرطٌ بها. من هنا، وللبدء بالرواية الاثنوغرافية حول وضعية أزمة كورونا، انطلق من بيان بعض الهواجس؛ لأنّ هذه الهواجس هي المشاعر الأكثر شيوعًا في هذا الوضع الطارئ. وتعبّر هذه المخاوف عن قلقنا وشكوكنا، مثل معظم الناس في هذه الأيام؛ قلقٌ من كلّ تلك الأمور التي كان يتحدّث عنها علماء العلوم الاجتماعية والإنسانية في العقود الأخيرة ويحذّرون منها ونحن اليوم نشاهد حدوثها. فاليوم قد ظهر ما بيّنه عالم الإجتماع الراحل أولريش بك سنة 1990 حول «المجتمع المحفوف بالمخاطر»،

* أستاذ علم الأنسنة. باحث في مركز أبحاث العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية. ترجمة محمد ترمس، أستاذ في كليّة التربية في الجامعة اللبنانية.

وقد استحوذت أخطاره على الجميع. لقد كان محقًا هيدغر عندما كان في سنوات النصف الأول من القرن العشرين، قلقًا من «تكنلجة» العالم ومن الهوة الحاصلة بين الإنسان والطبيعة؛ هوة تؤدّي الى التناقض في توازن الطبيعة وتعادلها، والى تخلخلها وتدميرها. وأنا قلقون من «الموت الجماعي» الذي تحدّث عنه إدغار موران سنة 1980: موتٌ غامض على يد عدوٍ غير مرئي. قلقٌ من عدم انضباط البشر الذين لم يفكّروا في هيمنتهم المطلقة العنان على الطبيعة وأوقعوا روح العالم وجسده في خطرٍ لا نهائي. نحن قلقون من الإيديولوجيات وحركات الإستبداد والقمع الذي مارسته الدول في ظلّ استخراجها للموارد والثروات الطبيعية وبيعها واعتبرت نفسها مستغنية عن الناس والشعوب وقامت بخنق الشعوب وصوتها؛ صوتٌ لو كان يُسمع، لما تُرك الملايين من الناس لوحدهم وبلا ملجأ في أوقات الأزمات ولما كانت أنظمة الحُكم والأنظمة الصحية غير فعّالة. نشعر بالقلق من هذا الفيروس الملعون الذي أعطوه اسمًا ليس على مسمى أي «كورونا» (التاجي)؛ فيروسٌ من صنعنا نحن، البشر.نشعر بالقلق من جميع هذه الأزمات التي ولّدتها هذه الأزمة وما زالت تولّدها؛ نشعر بالقلق على أرضي ايران التي وطأتها أقدام كوفيد - 19 وهزّت اقتصاد عالمنا وسياسته وحياته.

يقول فرانك اسنودن، المؤرخ البارز للأمراض الوبائية: «ليست الأمراض الوبائية أحداثًا عشوائية تصيب الجتمعات فجأةً ومن دون سابق إنذار. بل الصحيح هو العكس، لكل مجتمعٍ آفاته ونقاط ضعفه الخاصة به. ولأجل دراسة ذلك المجتمع، يجب أن نفهم بنيته ومستوى معيشة أفراده وأولوياته السياسية». وهكذا، يمكننا الحديث عن كورونا هندي، وكورونا بريطاني، وأميركي وإيراني، وعن المخاوف والهواجس الخاصة بكلٍ من هذه المجتمعات. وهنا، إنّما أريد أن أكتب عن هذه المخاوف.

دخل فيروس كوفيد - 19 الى ايران في منتصف شهر «بهمن 1398» (شباط 2020) وأوجد الخلل والإضطراب في كلّ الأوضاع. وقد بدأت هذه الأزمة من الصين، وحتى هذه اللحظة فقد انتشر الفيروس في أغلب الدول ووضع بصمته في كلّ مكانٍ حلّ فيه. في الهند، هناك كورونا هندي والتوترات بين الهندوس والمسلمين والنظام الطبقي (ما يُعرف بنظام الكاست)، وفي أمريكا لدينا كورونا الليبرالية والتوترات بين منتقدي الرأسمالية والليبرالية الجديدة؛ وفي الصين، حيث

النزاع بين رأسمالية الدولة والفقر؛ وفي ايران أيضًا كان لدينا «كورونا إيراني» الذي عطّل عيد النوروز القديم وحرم الناس من التزاور ومن اللقاءات وأغلق المقامات والأماكن الدينية وأحيا النزاع بين التراثيين (التقليديين) والحداثيين. وفُرض الجلوس في المنزل على الجميع وسرت كلمة «الحجر» غير المألوفة والنادرة على جميع الألسن؛ وتمّ تعطيل المدارس والجامعات والمراكز التعليمية وخفّ وهج الأعمال الإقتصادية. وانشغل الجميع بالغسيل ومراعاة النظافة.

وها قد مضى الآن ثلاثة أشهر على بداية الأزمة؛ أصبح الفقراء أكثر فقرًا وأحاط الخوف من المستقبل بالجميع. وأصبح الناس الآن يصرخون ألمهم من خلال مزاحاتهم ونكاتهم. وأصبح الفضاء الإفتراضي أكثر فاعليّة. وكأنّ الجميع قد وجد في هذا الفضاء مهربًا للجوء إليه أو العيش فيه.

كانت مشاعر القلق سائدة لدى الجميع؛ كان الشعور بأنّ أزمة كورونا ليس مقررًا لها أن تنتهي عمّا قريب وكيف سيتكيّف العالم مع الآثار المدمّرة لهذه الأزمة. ولا تزال جميع وسائل الإعلام، الصحف وشبكات التواصل الإجتماعي منغمسة في إجراء الحوارات والمقابلات حول هذه الأزمة. ويسأل الناس عن مستقبلهم وعن مستقبل ملايين الناس الذين ابتلوا بالفقر والحرمان الشديدين أو أنّهم سوف يبتلون. ويتحدث بعض الإقتصاديين أيضًا عن توسّع نطاق عدم المساواة والفقر الناشىء من هذه الأزمة واحتمال قيام انتفاضات الخبز. أمّا أولئك الذين تعلّقت قلوبهم بالدين والشعائر الدينية، فقد كانوا قلقون خشيةً من أن تتقهقر المناسك والطقوس الدينية في المستقبل وتختفي. ولم تكن الجامعات ومراكز التعليم العالي، الطلاب والعلماء يعلمون ماذا سيؤول إليه مصيرهم. وتمّ تعطيل مجال السياحة وأصبح الملايين من الأفراد قلقون على أعمالهم وعلى وضعية المراكز السياحية. وتزعزعت العلاقات الإجتماعية للناس وتعطّلت. الكثير من الناس كانوا في الحجر الصحي. ولم يعد القلق يُرى على الوجوه فقط، بل أيضًا على الكمامة. ارتفع مستوى العنف المنزلي. وأصبحت الاجتماعات محدودة أو مستحيلة تمامًا. وقد آلم الناس كثيرًا عدم مقدرتهم على إقامة المآتم ومراسم الجنازة والعزاء كما يجب ويليق بالأموات. الجميع قلقٌ من أنّه الى متى سوف تستمر هذه الحالة والى ماذا ستؤول إليه عاقبة الأمور. كلّ يوم تشير الإحصاءات الى ارتفاع عدد المصابين وكذلك بعض الضحايا. يقول المتخصصون ومنظمات الصحة العالمية والوطنية بأنّ هذه

الأزمة لن تنتهي عمّا قريب، وأنّ هناك احتمالًا قويًا بأن تصبح أكثر شدّة في فصل الخريف. ورغم بذل العديد من المراكز البحثية في أنحاء العالم الجهود لصناعة الدواء واللقاح وفي ظنهم أنّهم سينجحون في ذلك قريبًا؛ لا يزال الحديث عن الموجة الثانية، والثالثة وعدة موجاتٍ أخرى من هذه الأزمة سائدًا.

ولكن ليس كل شيءٍ غير سارٍ أيضًا. فقد ازداد التعاطف والشفقة في العالم وفي ايران. وأصبح الناس أكثر حنانًا ولطفًا ويمكنهم في فضاء حجرهم الصحي أن ينظروا الى أنفسهم قليلًا ويتأملوا بها. وتنقل وسائل الإعلام ووسائل التواصل الإجتماعي في كل لحظة التقارير حول جهود المجموعات والأفراد الإنسانيين والمضحين؛ فهؤلاء يهتمون بالآخرين ويحرصون عليهم من التعرّض لأذى أزمة كورونا. الناس يتشكرون الأطباء ويقدّرون الممرضين وكوادر المراكز الطبية على تضحياتهم الجسام. وينبعث من المستشفيات صوت الرقص والغناء. وانخفضت الروحية الإستهلاكية والجميع يتحدث في وسائل التواصل الإجتماعي عن محاسن الحياة، وعن القيم الأخلاقية، والشفقة والتعاطف. لقد طرح الموت أسئلة عرفانية وأخلاقية، وهناك شعورٌ بالمساواة بين الناس أيضًا. يقول الناس بأنّ كورونا لا يميز بين فقيرٍ وغنيّ أو بين قويّ وضعيف.

إن فيروس كورونا التاجي يهدّد شعوب العالم، حتى شعوب الدول المتقدّمة مثل اوروبا وأمريكا. إذ لم تكن الأنظمة الصحية في هذه المجتمعات لغاية هذه اللحظة على قدر المتوقع منها. وعلى ما يبدو كأنّ الناس سعداء من كون العالم الغربي لم يكن كما كانوا يظنون، أنّهم «هم الأفضل منّا»، فهم أيضًا قد جثوا على ركبتهم أمام كورونا! خّفت الرحلات والأسفار، وانتقلت الى العالم الإفتراضي. تنّفست الطبيعة الصعداء، الفصل ربيع وماطر والهواء رومانسي.... إنّ هذه الأمور الآنفة الذكر هي جزءٌ من وصف الوضع المتأزم الذي نحن نعيشه الآن وأنا في وسط هذا الميدان، مشغولٌ بالكتابة. خذوا بعين الإعتبار عالِم اثنوغرافيا في وسط ميدان الدراسة وما بين أيديكم هو جزءٌ من ملاحظاته الأولية.

لم يكن أحد يتصور، قبل أزمة كورونا، أنّ من الممكن أن يحدث شيءٌ يومًا ما أو يمكن القيام بعملٍ يجعل العالم كلّه يواجه أمرًا واحدًا وينشغل به أو أن يكون في وضع يدفع كل المستويات العلنية منها والخفية من المنظمات والبُنى والأنظمة والأشخاص للتحدّث والكشف عن أنفسهم أمام الملأ. استطاعت أزمة كورونا

وبمدة ثلاثة أشهر أن تخلق «لغةً مشتركة»؛ فعّلت من المجال العام على المستوى العالمي، والوطني والمحلي؛ خلقت المشاعر المشتركة؛ وأوجدت التحديات الكبرى في جميع المجالات الإقتصادية، والإجتماعية، والسياسية والثقافية، وبعثت في الوقت نفسه الأمل في أن يعيد العالم التفكير في أفعاله؛ وما كان في السابق يعتبر همّ وهاجس المثقفين فقط، جعلته أزمة كورونا همّاً للجميع؛ وأوقفت مسار تدمير الطبيعة والبيئة وأصبحت السبب في أن يُدرك الناس أزمات الأنظمة الصحية وأن يفكّروا ببدائل من أجل مستقبل العالم. لعلّ أزمة كورونا لم تغيّر العالم لغاية الآن، ولكنها جعلت ضرورة تغيير العالم أمرًا حتميًا.

واجه المجتمع الإيراني هذه الأزمة أيضًا، وأثّرت في المجال العام، في نظام الحكم، وفي البيئة التي يعيش فيها المواطنون والحياة الفردية والعالم الخاص. كانت كورونا معلمًا جدّيًا وصارمًا للجميع، وأخضعت الجميع للإمتحان. وطرحت كورونا أسئلةً صعبة في نطاقات المعرفة كافة والمجالات السياسية، ميادين الحياة وأذهاننا الفردية؛ أسئلةٌ لا بد من تقييمها بدقة والإجابة عنها.

لقد أوجدت أزمة كورونا الكثير من القبائح، والمحاسن، والمخاوف، والآمال والهواجس. وأنا أيضًا كأي مواطن عادي وأكاديمي في الوقت نفسه، واجهت هذا الوضع. كنت أشعر أنّه يجب عليّ التصرف في ظلّ هذا الوضع، يجب أن أفعل شيئًا يتجاوز الأنشطة التي كنت أقوم بها بشكلٍ عادي وطبيعي.

وهنا أريد فيما يلي وفي مسار السرد الاثنوغرافي نفسه أن أوضّح التجربة المُعاشة للجتمع الايراني في الأزمة الحالية. إذ أنّ سرد هذه التجربة لأجل حاضر ايران ومستقبلها ضروري. فنحن نواجه فقرًا في العلم التحليلي والوصفي حول الأمراض الوبائية. ولقد كانت ايران طوال التاريخ، كسائر المجتمعات، عُرضة لهذه الأمراض. ولكن ما خلا بعض الروايات التاريخية والوثائق والمستندات المتفرّقة، ليس لدينا روايات مسجّلة معتدٌّ بها عن هذه الأمراض. وروايتي هنا هي رواية اثنوغرافية. وللإثنوغرافيا العشرات من الإتجاهات وكلّ اتجاهٍ لأجل هدفٍ وعملٍ مناسب. والرواية التي أكتبها هنا هي «الاثنوغرافيا الموجّهة نحو الإشكالية». وكنتُ قد أوضحت في كتاب «الحياة كلّها تدور حول فهم الإشكالية»، أن المنظور الذي تبنيّته لمعرفة الثقافة هو «تحديد الإشكالية الثقافية».

فمن وجهة نظري، الاثنوغرافيا هي طريقةٌ للرؤية والعرض. كذلك من خلال

هـذا الطريـق يمكـن للمـرء أن يصبـح ناشـطًا ويمكـن لـذات الأثنوغرافـي الانخـراط بفاعليّـة وإبـداع في الأزمـة. وهـذه الروايـة هـي مجـرد رؤوس خيـوطٍ لبعـض المشـكلات التـي تشـكّلت فـي سـياق المجتمـع الإيرانـي فـي حالـة الأزمـة. وكمـا ذكـرت فـي البدايـة، كان لأزمـة كورونـا انعكاسـها الخـاص في كلّ مجتمـع. والأثنوغرافيـا مقاربـةٌ تـرى سـياقات الأحـداث وتعرضهـا. وفـي كل أزمـة، لا بـدّ للمجتمـع مـن أن يشـكّل أسـئلته وتحدياتـه الإقتصاديـة، والإجتماعيـة، والسياسـية والثقافيـة الخاصـة. وأزمـة كورونـا، هـي أزمـةٌ ظهـرت فـي السـياق الصحـي والصحـة العامـة، وكذلـك هـي أزمـةٌ اقتصاديـة، اجتماعيـة، سياسـية وثقافيـة. فكورونـا فيـروسٌ اختـرق أجسـاد النـاس وكذلك عالَمهـم. وفـي النتيجـة، ارتبطـت جميـع أبعـاد الوجـود ببعضهـا بعضًـا فـي وضعيـة كورونـا وتجـاوزت الأزمـة مسـألة صحـة النـاس وسـلامتهم. فكمـا أنّ هـذا الفيـروس يمكنـه الإضـرار بالأجسـام وإلحـاق المزيـد مـن الضـرر بممتلـكات المريـض، كذلـك فـإنّ ذلـك الجـزء الأكثـر ضعفًـا فـي المجتمـع والعالـم سـوف يكـون أسـرع فـي الإنخـراط فـي مواجهـة أزمـة كورونـا. ولهـذا السـبب، فـإنّ أزمـة كورونـا شـيءٌ أكبـر مـن مجـرد ظاهـرة يمكـن دراسـتها فـي اختصـاصٍ علمـي خـاص. ولفهـم هـذه الأزمـة، نحـن بحاجـة ماسّـة الـى مقاربـة مـا بيـن تخصصيـة. والأثنوغرافيـا مقاربـةٌ تتحـدث عـن تجربتنـا الحيـة؛ تجربـةٌ تخـرج مـن داخـل مواجهتنـا وصراعاتنـا مـع العالـم الحـيّ والحيـاة. ورغـم أنّـه لا يمكننـي تقديـم وصـفٍ غنـي وقـوي عـن تجربتـي الحيـة فـي هـذا الوضـع، ولكنـي أريـد تقديـم روايـةٍ ولـو عابـرة عـن الكورونـا الإيرانيـة وذلـك مـن منظـارٍ انثروبولوجـي وبتحليـلٍ ثقافـي. ولا أريـد فـي هـذا البحـث التحـدّث حـول جميـع الأبعـاد الصحيـة والطبيـة لهـذه الأزمـة، فهـذا الوجـه العـام والعالمـي للأزمـة. فمـا يهـمّ الأثنوغرافيـا هـو الوجـه المحلي أو الوطنـي لهـذه الأزمـة؛ لأنّ الأثنوغرافيـا ليسـت سـوى الكشـف الخاص لكينونـات المسـائل والمشـكلات ورؤيتهـا. وأزمـة كورونـا بالنسـبة لنـا، الشـعب الإيراني، قـد اتخـذت صياغـةً ثقافيـة منـذ البدايـة.

وكذلـك لا أريـد فـي هـذا البحـث شـرح التفاصيـل الكثيـرة لجميـع أفعـال واجـراءات هـذه الأزمـة، حوادثهـا، آلامهـا، توتراتهـا ومشـكلاتها الإجتماعيـة والثقافيـة. فمنـذ بدايـة الأزمـة، انكببـتُ علـى الكتابـة والتفكيـر حـول هـذه الأزمـة وحـول أبعادهـا المتنوعـة، علـى هـذا الأسـاس، لـم يكـن هنـاك مـن حاجـة لكتابـة كلّ شـيء. ولكـن فـي هـذا الوضـع المتـأزم، هنـاك بعـض الأمـور اللافتـة للنظـر بالنسـبة إليّ كإثنوغرافـي؛ وأريـد أن أروي

هذه الأمور هنا بشكلٍ مفهرس. وربما لا تحمل هذه الرواية أخبارًا جديدة بالنسبة للقارىء الإيراني الذي يتتبّع في هذه الأيام وسائل الإعلام ووسائل التواصل الإجتماعي. ولكن رغم ذلك لا يجب عليّ الإنصراف عن كتابة هذه الرواية؛ لأنّ عمل الأثنوغرافيا استنطاق هذه الأخبار والحوادث المعروفة لدى الناس تمامًا وتسجيلها وإعطاء الدلالة والمعنى لها. ولعلّه يكون كلامي لأولئك الذين سوف يقرأون هذه الرواية بعد عشرة أو خمسين أو خمسمئة سنة، جذابًا ومثيرًا للإهتمام. فهم يكونون قد ابتعدوا عن الوضع المتأزم الحالي.

إشكاليتنا وكورونا

هناك عبارة مشهورة لصادق هدايت في مقدمة كتابه «بوف كور» (البوم الأعمى)، تضطرنا لا محالة الى الإلتفات إليها في ظلّ الأوضاع المتأزمة والمؤلمة. يقول هدايت: «في الحياة جراحٌ كالجذام، تأكل الروح ببطءٍ في العزلة وتعرّيها. لا يمكن إظهار هذه الآلام لأحدٍ.... ولم يجد البشر بعدُ حلًا ودواءً لذلك، والدواء الوحيد لها هو النسيان عبر الشراب والنوم الإصطناعي، بواسطة الأفيون والمخدرات؛ ولكن للأسف إن تأثير مثل هذه الأدوية مؤقت وبدلًا من أن تُسكن الألم فإنّها بعد مدةٍ تزيد من شدّة الألم». إنّ أزمة كورونا كشفت عن بعض هذه الجراح الموجودة على جسم الإنسان وروحه وعلى مجتمع اليوم، ولم يكن هناك من مجالٍ ومكانٍ للتعبير عنها وإبرازها وكنّا جميعًا في حالةٍ من كتمانها أو التستر عليها أو نسيانها. فالإنسان والمجتمع المعاصر قد عرّضا ولا يزالان بدنهما وجسد الطبيعة لضرباتٍ وجراحاتٍ مميتة منذ عقودٍ من الزمن. وهذه الجراح هي منّا وعلينا. ولهذا السبب فإنّ التفوّه بها من قِبل الأكاديميين والنُخب السياسية ليست إلا بصقًا الى أعلى. ولا يوجد رغبة في قولها. وخاصةً أنّ هذا البصق الى أعلى ذو جذورٍ في أساس العلم والتكنولوجيا أيضًا، وشرحه للأكاديميين أمرٌ صعبٌ بشدّة. لقد خُدش كبرياء الإنسان الحديث. ولا شك أيضًا أنّ النظام الرأسمالي، إيديولوجيات اليمين واليسار، والليبرالية، والليبرالية الجديدة والأصولية، وبشكلٍ عام أصحاب المال والسلطة والتزوير الذين دمّروا العالم ولا يزالون يفعلون ذلك؛ قاموا جميعهم ويقومون بتنفيذ جراحاتهم على جسم الإنسان وروحه بواسطة العلم والتكنولوجيا. وصحيح ما قيل بأنّه «عندما يأتي اللص ومعه مصباح، فسوف يتمكن من اختيار

المزيد من السلع»؛ فالأنظمة الحاكمة وأجهزة الرأسمالية الهادفة للربح (سواءً في أنظمة رأسمالية الدولة أو الرأسمالية الحرة)، وآليات التنمية والتجديد المطلقة العنان، قد أنتجت الكثير من الفيروسات وتعيد إنتاجها وتكاثرها بمساعدة العلم والتكنولوجيا. وقد أظهر ميشال فوكو حقًا أنّ العلوم في العالم المعاصر والحديث إنمّا هي «تكنولوجيات السلطة» وأنّ جميع أشكال علاقات السلطة والقدرة يتمّ تنفيذها وتشكيلها مع العلوم وبوساطتها. ومن هنا، فإنّ أزمة كورونا تطرح هذا السؤال علينا وتضعه نصب أعيننا وهو أنّه ماذا فعلنا حتى ثارت علينا الطبيعة وانتفضت بهذا الشكل. إنّ فيروس كورونا هو علامة استفهام في مقابل مؤسسة العلم والتكنولوجيا؛ وأنّه لماذا وكيف أصبحت هذه المؤسسة أدَاةً للأنظمة الحاكمة وايديولوجياته بلا قيدٍ أو شرط.

لم تظهر كورونا فجأةً، بل إنّ الإنسان منذ عقودٍ من الزمن قد نهب وسرق كلّ شيءٍ بما في ذلك جسمه، في سعيه المطلق العنان للسيطرة على الأرض والزمان واستغلالهما، وللاستهلاك المستمر وغير المحدود. لقد وفّرت الأنظمة الحاكمة على جميع الصعد العالمية، الوطنية والإقليمية الأرضية لفيرسة (لتلويث) الوجود من خلال طرق تسويق وتسليع الزراعة، والغابات، والحيوانات، والمياه والتراب. هكذا أنتجت هذه الأزمة بمساعدة التكنولوجيا وباسم العلم. من هنا بدلًا أن يكون العلم ملاكًا لخلاص الإنسان وأمله من أجل السعادة والرفاه، كما هو المفترض، أصبح شيطانًا كبيرًا خدع الإنسان وألقى به في أزمةٍ عظيمة. طبعًا في المجتمعات والأنظمة اللاعقلانية والمخالفة للعلم، شكّلت هذه الأزمة ذريعة جيدة لتبرير أياديها الملوثة وسياساتها الهدّامة وللهجوم على مؤسسة العلم والجامعة؛ ونفس هذا الأمر يوجب عدم المقدرة على التحدّث بمرونة وسهولة عن الجراحات الموجودة على جسد الإنسان المعاصر وروحه. وعلى أيّة حال، لقد أجبرتنا أزمة كورونا على إعادة التفكير والتحدّث عن الجراحات العميقة، حتى لو كان هذا الفعل على حساب الماء في طاحونة تحطيم اللاعقلانيين ومخالفي العلم!

إنّ فيروس كورونا ليس أول جائحة تلمّ بالإنسان في القرن العشرين. على مدى نصف القرن الماضي ظهرت الآف الفيروسات في العالم وانتشر عددٌ منها مثل الإيدز (HIV)، والسارس (2003) أو الآبولا (2013). لم يأخذ إنسان القرن الواحد والعشرين العبر اللازمة من شيوع أمراض مثل سارس، مرس، زيكا وأبولا

ولـم يُعـد النظـر في نظـام حكمـه حتـى وصـل بـه الأمـر الـى فيـروس كورونـا والـى الأزمـة العالميـة المتورطيـن فيهـا حاليًـا. ولغايـة الآن ليـس هنـاك من مؤشـراتٍ ملموسـة تدلّ على وعيّ واقعي في العالـم. إذ لا تـزال وسـائل الإعـلام والسياسـات تبـذل جهودهـا الخادعة لإختـزال هـذه الأزمـة في ظاهـرةٍ طبيـة وترفـض إعـادة النظـر في أنظمـة الحكـم. ولكـن السؤال المهـم هـو مـا هـي المسـؤولية الملقـاة على عاتـق الإنسـان الأكاديمـي في ظـلّ هـذا الجـو المتـأزم. والجـواب الواضـح والقطعي هـو أنّـه عليـه السـعي في إظهـار الجذور البنيويـة للأزمـة الحاليـة ليضعهـا على مـرأى ومسـمع النـاس وأن يقـول بصـوتٍ عـالٍ أنّ العلـم والتكنولوجيـا لا يمكـن ولا يجـب أن يكونـا فـي خدمـة تدميـر الطبيعـة ومـوت الإنسـان. طبعًـا، إنّـا نـرى أنظمـة الحكـم فـي مقولـة التكنولوجيـا أيضًـا؛ لأنّ الحكـم هـو اليـوم أيضًـا مـن أشـكال العلـم المعقـدة. ووفـق تعبيـر ميشـال فوكـو، العلـوم فـي العالـم المعاصـر والحديـث هـي «تكنولوجيـات السـلطة» وتمـام تكنولوجيـات السـلطة هـي أشـكالٌ مـن العلـم. والمسـألة واضحـة تمامًـا: تكمـن جـذور الأزمـات فـي أشـكال المعرفـة البشـرية الحديثـة. فهنـاك الملاييـن مـن خرّيجـي الجامعـات موجوديـن فـي المؤسسـات والبيروقراطيـات. وهـؤلاء هـم الفـأس الـذي يضـرب جـذور الطبيعـة والحيـاة البشـرية. نعـم، وأنـا أعلـم بـأنّ للديكتاتورييـن و«ديكتاتوريـي السـوق» و«ديكتاتوريـي الإيديولوجيـات» حصـة مهمـة فـي الأزمـات العالميـة. ولكـن وفـق قـول جـورج برنانـوس، الكاتـب الفرنسـي، «الديكتاتوريـون لا يخلقـون ديكتاتورييـن؛ بـل القطيـع هـو مـن يخلقهـم». والعلـم والجامعـة فـي عالـم اليـوم كالقطيـع التابـع للديكتاتورييـن والبيروقراطييـن المسـيطرين عليهمـا. ولا تسـتطيع الجامعـة البيروقراطيـة أن تنتـج علمًـا تحرريًـا وجامعـةً ملتزمـة ومسـؤولة أمـام المجتمـع والبيئـة. نعـم، وأنـا مطّلـعٌ تمامًـا على أنّ الكثيـر مـن الباحثيـن ومـن اختصاصـاتٍ متنوعـة يوجّهـون لسـنواتٍ طويلـة النقـد المسـؤول للسياسـات والعلـوم، وأخبرونـا بالعواقـب المدّمـرة لأنظمـة الحكـم وللسياسـات المدّمـرة المهيمنـة على العالـم. ولكـن الواقـع المـرّ هـو أنّ التيـار المهيمـن على العالـم وعلى أنظمـة العلـم والتعليـم العالـي، قـد همّـش هذا التفكيـر النقـدي الى الأبـد وتجاهله ولا يـزال يتجاهلـه. ولذلـك، أعتقـد بـأنّ أهـم تجديـد نظـرٍ بنيـوي يجـب أن يتـمّ فـي نفس مؤسسـة العلـم والجامعـة؛ مؤسسـةٌ يجـب أن تخضـع للمسـاءلة فـي مواجهـة أزمـات اليـوم.

أنـا أيضًـا مثـل جميـع النـاس فـي هـذه الأيـام غـارقٌ فـي التفكيـر؛ التفكيـر فـي هـل يمكـن لهـذه الأزمـة أن توقظنـا مـن النـوم أم لا، فـي مـا هـو تكليفـي فـي هـذا الوضـع

المتـأزم. وأنـا أيضًـا مثـل زملائـي الجامعييـن، أذكّـر أنّنـا بحاجـة الـى إعـادة النظـر فـي جميـع أنشـطتنا الجامعيـة وأنّ عليّ أن أفعـل ذلـك بنفسـي.

ومـع ظهـور كورونـا، انخـرط العالـم فـي أزمـةٍ لا سـابقة لهـا منـذ الحـرب العالميـة الثانيـة. ولـم يقتصـر الإنخـراط فـي هـذه الأزمـة علـى الـدول فحسـب، بـل علـى جميـع المؤسسـات والنـاس. ومـا يميّـز هـذه الأزمـة عـن غيرهـا مـن الأزمـات هـو انخـراط وتـورّط جميـع سـكّان الأرض. إنّهـا حادثـة عظيمـة، لأنّهـا ارتبطـت بمصيـر حيـاة النـاس وموتهـم. حتـى أولئـك الذيـن لا يشـعرون بالخطـر لسـببٍ مـا، يمكـن أن يكونـوا ناقليـن لهـذا الفيـروس ومـن هنـا هـم يشـكّلون خطـرًا علـى الآخريـن. إن انخـراط جميـع سـكّان الأرض فـي هـذه الأزمـة يعنـي أنّ السـياق العـام للعالـم قـد تغيّـر ولا بـد للنـاس مـن أنّ يدركـوا أنفسـهم فـي وضـع مختلـفٍ عمّـا كانـوا عليـه وعاشـوا فيه سـابقًا. وهـذا الموضوع يشـملني أيضًـا. فـي هـذه الأزمـة وبعدهـا يجـب أن أجـد نفسـي فـي فضـاءٍ آخـر، وأن أفكّـر وأشـعر لأجـل حياتـي، وأدواري، وأمانـيّ، ومخاوفـي وآمالـي بطريقـةٍ أخـرى.

اتنوغرافيا في عالمٍ مضطرب

واجـه عالـم مـا قبـل كورونـا أزماتٍ كبيـرة، ولكـن هـذه الأزمـات لـم تجـذب اهتمـام المجتمـع العالمـي والنـاس إليهـا. امّـا فـي وضـع كورونـا المتـأزم، فتكّدسـت وسـائل الإعـلام ووسـائل التواصـل الإجتماعـي بالتقاريـر التـي تعـرض كيـف أنّ الملاييـن الملاييـن مـن النـاس يموتـون مـن الفقـر، والإدمـان، وحـوادث الطـرق، والتلـوّث البيئـي، والعنـف، والحـروب الإقليميـة، والعنصريـة العرقيـة، والقوميـة، والدينيـة، واللغويـة، والجنسـية والإجتماعيـة أو أنّهـم فـي المعانـاة والعـذاب. ويمكـن تقديـم الكثيـر مـن الإحصـاءات والمعلومـات حـول كلّ مـن هـذه المصائـب العالميـة والجماعيـة ويمكـن الحصـول علـى هـذه الإحصـاءات والمعلومـات ببحـثٍ بسـيط فـي الفضـاء الإفتراضـي والمـوارد الدوليـة. ولعقـودٍ طويلـة، يتحـدث الباحثـون والعلمـاء ومـن اختصاصـاتٍ متنوعـة عـن الشـر المهيمـن علـى العالـم. منـذ مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، ورغـم أنّـه لـم تحصـل أي حـربٍ عالميـة بعـد ذلـك، ويتعـرض معظـم شـعوب العالـم لأشـكالٍ معقـدة مـن الحـروب، ومـن النهـب، والإهانـة والإذلال، والقمـع والقهـر الجماعـي. لقـد قضـى الإرهـاب، والحـروب الإقليميـة فـي الشـرق الأوسـط، وافريقيـا، وآسـيا وأمريـكا اللاتينيـة، سـنوياً علـى أجسـاد وأرواح الملاييـن والملاييـن مـن النـاس. إذ انتشـر الإدمـان

وتهريب المخدرات، والإتجار بالبشر، والهجرة القسرية، والبطالة، واللامساواة الدولية، والفجوات بين الجنسين والتفاوت الطبقي، والعقوبات المدمّرة من الدول ضد بعضها البعض والكثير من التحديات والتوترات الهدّامة في العالم، وكل ذلك كان يؤذي الجنس البشري وكأنّه أمرٌ عادي وروتيني. ولكن لم يكن العالم يصغِ الى أصوات المقموعين، والمهمّشين، والفقراء، والمذلولين، والجائعين، والعاطلينَ من العمل، والمرضى والمساكين بسبب الأزمات الكبيرة ولا يزال غير مصغٍ؛ وفي ظلّ هكذا سياق ظهرت أزمة فيروس كورونا.

ظهرت جائحة كورونا في زمنٍ كان فيه عصر المعلومات، وعالم الشبكات والإتصالات، وعصر الديموقراطية، والمجتمع القائم على المعرفة، والحياة الإستهلاكية، والبشر المستهلكين، والثقافة المتغيرة والسيّالة وعصر عدم اليقينيات وأزمات الحداثة يهيمن على كلّ شيٍ وفي كل مكانٍ. كما أصبح الكثير من السلع، والموارد، والعلوم والتكنولوجيات في متناول اليد، كذلك كانت الأزمات البيئية، والتوترات الدولية، والفقر، وعدم المساواة، والعنف، والحروب، والتطرّف، والأصولية، وهيمنة الأنظمة السلطوية والقمعية والكثير من الأزمات الأخرى صارخة جدًا. ويستدل الكثير من الباحثين والمؤلفين بأنّه قريبًا ونتيجةً للتطورات الحاصلة في الذكاء الإصطناعي، سوف يحل الإنسان الإله[1] مكان الإنسان العاقل، إنسانٌ يتغلّب على الموت ويصبح خالدًا، إنسانٌ يمكنه الحصول على اللذة والإستمتاع كيفما يريد وقدر ما يريد. ربما قد يحلّ ذلك اليوم، ولكن أزمة كورونا أظهرت بأنّ العالم وبالحد الأدنى لغاية الآن يعاني من نقاطٍ ضعفٍ بنيوية كبيرة. ولغاية هذه اللحظة، تحتل أمريكا الصدارة في المصابين والموتى في أزمة كورونا. وحال أوروبا ليس أفضل من أمريكا. وقد تبيّن الآن أنّ الحق كان مع الذين يعتبرون السياسات الليبرالية الجديدة (السياسات النيوليبرالية) مدمّرة. ولم تستطع الأنظمة الصحية في المجتمعات المتقدّمة الخروج من أزمة الكورنا برأس مرفوع. فقد طرحت أزمة كورونا أسئلةً صعبة أمام مجموعة العلوم الصحية والطبية.

لعقودٍ طويلة كان الأنثروبولوجيون النقديون مثل الكثير من الباحثين الآخرين، يكتبون ويتحدثون حول هذه الأزمات في مختلف أنحاء العالم. وقد نُشرت المئات والآلاف من الدراسات المونوغرافية في المجلات الجامعية والتي تروي كلٌّ واحدةٍ

1- Homodeus.

منهـا قصـة الإنسـان المعاصـر الحزينـة. ولكـن هـذه الروايـات مثـل الروايـات النقديـة كافـة والتـي كتبهـا باحثـو العلـوم الأخـرى، لـم تكـن تُقـرأ أوتُسـمع. وفـي وضـع أزمـة كورونـا، ظهـر بعـض الباحثيـن في المجـال العـام وقدّمـوا تحذيراتهـم وتنبيهاتهـم للعالم. ولكـن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه هـو لمـاذا يصـمّ العالـم آذانـه عـن هـذه الأصـوات الناقـدة، وكمـا ذكـرت سـابقًا، هنـاك أيضًـا سـؤال حـول مـا إذا كانـت مهمـة العلـم والأوسـاط الأكاديميـة مقتصـرة على إجـراء البحـوث وليـس لديهـا أيّ مسـؤولية أخـرى أمـام الأزمـات. أليـس جديـرٌ بالإنسـان الجامعي أن يحـاول دفـع نتائـج بحوثه الى خارج حـدود مخاطبيـه التخصصييـن؟ ألا تشـير أزمـاتٍ مثـل كورونـا الـى عـدم كفايـة عمـل المؤسسـة الجامعيـة وحتـى الأبحـاث النقديـة والمنتقديـن مـن الباحثيـن؟

ايران في سياق الأزمة

انخـرط المجتمـع الإيرانـي فـي مثـل هـذا السـياق العالمـي، فـي أزماتـه الوطنيـة والمحليـة. وهـذا الإنخـراط كان سـاريًا طـوال العقـود الماضيـة فـي المجتمـع الإيرانـي الثـوري، ولكـن فـي السـنوات الأخيـرة وصلنـا الـى نقطـة تراكـم وكثافـة هـذه الأزمـة. مـن هنـا، لـم يكـن المجتمـع الإيرانـي سـعيدًا سـنة (2020-2019). لـم تكـن ايـران مسـتعدة لأزمـة كورونـا. وأنـا كانثروبولوجـي كنـت الـى حـدٍّ كبيـر فـي خضـم هـذه المواجهـة والتحديـات صغيرهـا وكبيرهـا. وكان شـعوري الدائـم أنّـه في هـذا المجتمـع لا يمكـن للمـرء أن يكـون شـخصًا أكاديميًـا بالمعنـى الـذي هـم عليـه زملائي في عالـم التنميـة. فالمجتمـع الإيرانـي يلقـي بـي فـي قلـب الأزمـات على الـدوام. لا يمكـن فـي هـذا المجتمـع التركيـز على موضـوعٍ أو مشـكلةٍ واحـدة وقضـاء سـنوات عدة لإستكشـاف هـذه المشـكلة. ولـم تكـن أزمـة كورونـا سـوى إحـدى الأزمـات الهائلـة التـي أجبرتنـي علـى الإنخـراط فيهـا ومواجهتهـا والكتابـة حولهـا. وكأنّ مصيـر الإنسـان الجامعـي، وخاصـةً الانثروبولوجييـن فـي ايـران، هـو مواجهـة علـل وأمـراض المجتمـع والإنخـراط فيهـا وعملهـم هـو سـرد روايـة «مجتمـع الطـوارىء» الـذي فـي كل لحظـة هنـاك مـكانٌ منـه إمّـا فـي حـال انهيـارٍ أو احتـراقٍ أو دمـارٍ واحتضـار.

لقـد قوّضـت أزمـة العقوبـات الدوليـة البنيـة الإقتصاديـة لإيـران وطاقتهـا وقدرتهـا. هـذه الأمـور جعلـت حـال المجتمـع الإيرانـي سـيئًا ولا تـزال تجعلـه أكثـر سـوءًا. وقـد انتشـر فيـروس كورونـا فـي الأرض فـي وقـتٍ كانـت التوتـرات السياسـية والعسـكرية فـي ذروتهـا

على أثر اغتيال القائد سليماني وسقوط طائرة الركّاب الأوكرانية. وفضلًا عن هذه التوترات، يجب إضافة القضايا والمشكلات الإجتماعية الناشئة عن الفقر والبطالة وعدم فاعلية النظام الإداري، والأزمات السكانية والهجرة والكثير من المشاكل الصغيرة والكبيرة الأخرى. وكذلك جعلت وسائل الإعلام الداخلية والدولية الأجواء الذهنية والرأي العام تحت أشدّ الضغوط الروحية والنفسية من خلال عكسها لهذا الوضع. وفي ظلّ مثل هذا الوضع حلّ فجأةً بلاء فيروس كورونا العظيم على العالم. لقد أمسكت جائحة كورونا برقبة ايران وانتقلت بسرعة من مسقط رأسها الصين لتصل الى ايران. وقد انتشرت بسرعة لدرجة أنّ ايران أصبحت مركزًا لهذه الجائحة في المنطقة. وقد بدأت هذه الأزمة من مدينة قم، المركز السياسي الثاني لإيران. وهذا الأمر زاد من الأهمية السياسية والثقافية للأزمة. وانتشر الفيروس رويدًا رويدًا في مدن جيلان، وطهران، ومازندران وباقي المدن والمحافظات وتشكّلت مع هذه الجائحة أوبئة نفسية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

وفي مثل هذا الوضع، ماذا يجب على انتروبولوجي واثنوغرافي أن يفعل؟ هل يمكن أن يكون كمشاهدٍ غير مبالٍ ينظر الى وقوع هذه الأزمات أو كباحثٍ جامعي يسعى الى تنمية نشاطاته وبرامجه البحثية؟ أوليس من مسؤوليته التحدّث عن المجتمع ومع المجتمع؟ وهل يمكنه الإستمرار بعمله في التدريس والبحث كأنّ الوضع عادي ويمضي حياته كحياة موظف؟ أو أنّه يجب أن تقبّل مسؤولية الدفاع عن المجتمع بكل شهامةٍ وشجاعة وبمسؤوليةٍ وإبداعٍ عبر قلمه وبيانه وعلمه؟ أولم يتعلّم ويكتسب المهارات ويتسلّح بالعلم والتكنولوجيا بمساعدة أُناس هذه الأرض وثرواتهم، ليتمكّن في الأيام العصيبة والأزمات أن يتحرك ويعلي الصوت ويبذل الجهود لأجل خلاص أرضه وشعبه؟ يجب على جميع الجامعيين والأكاديميين أن يطرحوا هذه الأسئلة على أنفسهم. إنّ مؤسسة العلم والجامعة تتحمّل المسؤولية في مقابل هذه الأزمة.

في ظلّ هذه الأوضاع، حلّت أزمة كورونا ووجدت نفسي فجأةً في ميدان الدراسة ومواجهة هذه الأزمة، من دون أن أكون مُعدّا نفسي للقيام بمثل هذا النشاط والبحث الميداني. وكما أشرت آنفًا، بالنسبة للانثروبولوجي الذي يعيش في مجتمع مثل المجتمع الإيراني، «مجتمع الطوارىء» المنخرط دائمًا في مواجهة الأزمة، من الصعب أن يتمكّن من اتّباع برنامج مصمم مسبقاً للبحث والتحقيق.

فمعظمنا نحن الأكاديميين، إذا أردنا القيام بمهنتنا الجامعية بمسؤولية، لا بدّ لنا أن نكون مستعدين للحضور في ساحات المجتمع في لحظات الأزمات وأن نسعى ونفكّر بالتزام في كيفية أنسنة الأوضاع الإشكالية وإعطائها الدلالة والمعنى. وهذا العمل ليس بالسهولة التي أكتب فيها لكم ويا ليته كان كذلك. جميعنا نحن الجامعيين لدينا مكان إداري في النظام الإداري للجامعة ووفق حكم القانون والأنظمة الإدارية هناك أعمالٌ يجب علينا إنجازها؛ ساعات وظيفية يجب ملؤها بالتدريس أو القيام بالخطط البحثية. وفي نفس الوقت، لدينا التزامات سياسية يجب مراعاتها.

ومع مضي الوقت، كانت الأزمة تصبح أكثر انتشارًا وأكثر خطورة، ويصبح معها التفكير في الذات والحياة أكثر عُمقًا. ومنذ بداية الأزمة، اتّخذت وسائل الإعلام، والصحف، ووكالات الأخبار ووسائل التواصل الإجتماعي الحوارات حول هذه الأزمة على محمل الجدّ، واستخدموا كل طاقتهم وقدرتهم من أجل استنطاق الوضع المتأزم.

ومن الأسئلة التي طرحتها وسائل الإعلام عن هذه المرحلة من الأزمة، كانت مخاوفٌ تهدد بقاء الناس والمجتمع. في البداية، كان المجتمع الإيراني في مواجهة مدى جدية هذه الأزمة وخطورتها وواقعيتها. وكأنّ المجتمع كان لديه رغبة شديدة في إنكار الأزمة. ولكن تجربة انتشار الفيروس في الصين كانت تشير الى أنّ الأزمة خطرة جدًا. وفي النهاية، دخل فيروس كورونا الى ايران وأصاب مدينة قم. واضطر المسؤولون للإنخراط في الأزمة ومواجهتها. ولكنهم كانوا مترددين في حجر هذه المدينة. وكان سؤال وسائل الإعلام هو كيف يتعامل المجتمع الإيراني مع هذه الأزمة ومقاومتها. وتنبع أهمية هذا السؤال من أنّ الكوارث الكبيرة مثل الزلازل، والفيضانات والأزمات البيئية أصابت المجتمع الإيراني لسنواتٍ طويلة، وفي كل كارثة كانت تحصل خسائر فادحة في الأرواح، في الإقتصاد والإجتماع. والنقطة المهمة الكامنة هنا هي هل أنّ لطريقة وأسلوب ردّ الفعل هذا حول الكوارث جذورًا ثقافية؟ هل يُظهر المجتمع الإيراني ردّ فعلٍ مختلف مقارنةً مع المجتمعات الأخرى؟

كورونا والنقاشات الخطابية

لقد طرح انتشار الأزمة في قم أسئلةً دينية أيضًا. لقد برز جدلٌ ونقاشٌ مهمٌ حول دور الدين في الأزمة. وأصبحت هذه الأزمة أكثر حدّة عندما كان يحاول البعض أن يروّج لاستراتيجيات الطب الإسلامي في مواجهة فيروس كورونا ولتجنّب هذا المرض أو علاجه. وهذا ما أحيا الجدل العظيم والتاريخي لمسألة تناقض العلم والدين على مستوى المجال العام. ومع أنّ الحكومة عملت في سياساتها على أساس النظام التخصصي لعلم الطب، ولكن المواجهة الخطابية بين العلم والدين أصبحت هاجس المجال العام لمدة طويلة. وفي هذا الجو الذي ظهرت في طياته دلالاتٍ ومؤشراتٍ سياسية، أصبح النقاش محتدمًا وعامًا حتى تحول النقاش ذاته إلى أحد نقاشات الأزمة المهمة. وأدّى إغلاق المراكز الدينية وتعطيل الطقوس والشعائر والمناسك الدينية الى اتّساع أبعاد هذا النقاش. ودفع المجال العام الذي تعزَّز بمساعدة وسائل التواصل الإجتماعي ووسائل الإعلام الدولية، بقضية الثقافة في مجتمعنا ليرتقي المشهد ويسترجع مرةً أخرى جميع الأسئلة التي تكوّنت في ذهن المجتمع منذ الثورة الدستورية الى يومنا هذا. لم يصدم كورونا أرواح الناس وحياتهم فحسب، بل صدم روح وحياة المجتمع بشدةٍ أيضًا، والبحوث التي كانت منحصرة فقط داخل الأجواء المثقفة والأكاديمية، انسحبت الى داخل المجال العام والحياة اليومية للناس. وفي ظلّ هذه الأجواء، كان يُتوقع من العلوم الإجتماعية وعلى وجه الخصوص الانثروبولوجيا أن يكون لها مشاركة مؤثرة. فقد طلبت الصحف، ووكالات الأخبار ووسائل التواصل الإجتماعي من الأكاديميين تقديم التحليلات والتفسيرات لعرضها على الناس.

كانت قصة النقاشات الفكرية تتسع كلّ يوم، وأخذت تتخذ جوانب وأبعادٍ جديدة. وأهمها كان سعي مناصري التراث والتقليديين ومعارضي الحداثة الى إظهار أنّ أزمة كورونا هي «نهاية الحداثة» وبداية ظهور القيم الدينية والتراثية. وفي الوقت نفسه، انبرى مناصرو ومتبنو القيم الحديثة للدفاع عن أهمية العلم، والتكنولوجيا والأنظمة التخصصية، وتحدّوا مواقف ورؤى التراثيين (التقليديين) في مجالاتٍ مثل المواقف من أخر الزمان والنزعة نحو الخرافة واللاعقلانية. وكان لهذه الرؤى والنظريات في الوقت نفسه دلالاتٍ سياسية مهمة. إذ كان التراثيون والتقليديون يحاولون إبراز نقاط ضعف الأنظمة الصحية في المجتمعات الغربية وخاصةً أمريكا

وبريطانيا وأن يطرحوها أمام أعين أخصامهم. وكذلك كانوا يتهمون منتقدي النظام الحاكم والعقلانيين الحديثين بالتغرّب والعلمانية. وفي المجموعة المقابلة، لدى المدافعين عن الحداثة أيضًا، كانت تتضّح عيوب النظام الحاكم والنظام الصحي لبلادنا. بالنسبة للتراثيين، أصبح جعل الناس متأملين ومتفائلين هدفًا استراتيجيًا وقد اعتبروا في الوقت نفسه، أزمة كورونا اختباراً إلهياً، وحتى أنّهم نظروا إليها أحيانًا بصفتها «معجزة». وقد تشكّلت وظهرت في ظلّ هذه «النقاشات الخطابية» مفاهيم جديدة مثل «الهيات كورونا»، «كورونا الإيراني»، «ما بعد كورونا»، «التمزق الكورونـي»، «الكورونية»، «المجتمع المكورن»، «الفيرسة»، «الحجر الكورونـي»، «أسرة مكورنة» والكثير من المفاهيم الأخرى من هذا القبيل.

ومع اتّساع انتشار الفيروس في مدنٍ أخرى وخاصةٍ طهران، اتّخذت الأزمة أبعادًا وطنية أكثر. وظهر بسرعة بحث الحجر والتباعد الإجتماعي ووجد جميع الناس أنفسهم في وضع الأزمة والمواجهة معها. وأُغلقت الأنشطة والمساحات الشغلية والمدنية وانخفضت حركة المرور والذهاب والإياب في المدن. وتعطّلت الحياة اليومية للناس عبر الحجر، والمكوث والعزلة في المنازل والإبتعاد الإجتماعي. وخرجت الحياة الإستهلاكية عن مسارها الطبيعي. وعُلّقت العديد من العادات اليومية الروتينية. وظهرت العادات الجديدة وخاصةً في مجال السلوكيات الصحية. وأُغلقت الأنشطة الرياضية، ودور السينما، والمسارح، والمتاحف، والحدائق العامة والمساحات الترفيهية. وتعطّلت مراكز الشراء، وهي الأمكنة التي يمضي فيها الناس جزءًا مهمًا من أوقاتهم. ومع الخطر الذي أوجده كورونا وانتشار إحصاءات المصابين والضحايا في كلّ لحظة، انخرطت عقول الناس وانشغلت بأسئلةٍ حول مسألة الحياة والموت. وقد أدّت هذه المجموعة من الحوادث الى أن تصبح الثقافة إشكالية واتّخذ سؤال الثقافة في ايران أبعادًا جديدة. ولقد جرّ هذا الموضوع نفسه العلوم الإجتماعية والإنسانية الى مسرح الأزمة، بالقدر نفسه الذي جرّ العلوم الطبية والصحية. وقليلٌة هي الأزمات التي كان لديها قدرة أزمة كورونا في المجتمع الإيراني التي استطاعت إشغال ليس فقط النُخب والأكاديميين، بل جمهور المواطنين العاديين بمسألة الثقافة. وهذا الموضوع نفسه بعث على زيادة دور الانثروبولوجيين وباحثي مجال الثقافة، في المجال العام.

وكلما كانت الأزمة أكثر شدّة وعمومية، كانت التناقضات، والتحديات والتوترات

الإقتصادية، والسياسية والإجتماعية تزداد في المجتمع أيضًا. ووسّع إغلاق مراكز التعليم العالي والمدارس من سياق انخراط الناس في الأزمة، بنفس قدر الحجر والمكوث في المنزل. وروّجت أزمة كورونا فكرة أنّ عدداً من الأنشطة التعليمية والبحثية يمكن القيام بها من خلال الفضاءات الإلكترونية. وعلى الأرجح، سوف يتسع انخراط التعليم العام في الفضاءات الإفتراضية ولن يعود الى حالة ما قبل كورونا. وأوجبت الأزمة أيضًا تعزيز مكانة العلم والتعليم العالي في الفضاء الذهني للمجتمع. لقد أدّى مكوث الملايين من التلاميذ وأكثر من مليون معلم وكادر إداري في المدارس، الى أن تخوض معظم العائلات تجربةً جديدة من الحياة في هذه الأزمة، وقد بدأ عملياً نظام التربية والتعليم بالتعليم عن بُعد وإنشاء الفضاءات التعليمية الإفتراضية. وبات على التلاميذ والكادر التعليمي للمدارس الآن الإنتقال الى الفضاء الإفتراضي. وأصبح إيجاد البنى التحتية للاتصالات الجديدة، وتعلّم مهارات العالم الإفتراضي وإبداع ثقافة تعلّمية جديدة، من ضرورات وإلزامات هذه الأزمة. وقد برزت القضايا نفسها لمؤسسات التعليم العالي.

إنّ تشكّل ثقافة تعليمية جديدة في وقتٍ قصير، ليس بالأمر الممكن ببساطة ومن دون تحدياتٍ وتوتراتٍ كبيرة. والنقطة المهمة هنا هي أنّ أزمة كورونا قد نقلت السؤال التعليمي التربوي الى المجال العام. إذكان لا يُبحث في التربية والتعليم في ايران في المجال العام في وسائل الإعلام إلّا في أواخر شهر (آب- أيلول) وأوائل شهر (أيلول- تشرين الأول) وبعد ذلك تختفي عن الأنظار إلا في حالات ظهور الكوارث والحوادث. وقد أظهرت أزمة كورونا حاجة العائلات للمدارس، ولكنها كشفت في الوقت نفسه عن الكثير من العيوب والنواقض الأخرى.

فاقمت أزمة كورونا من القضايا البنيوية والرئيسة للمجتمع الإيراني وجعلتها أمام أعين العدسات، والصحافة وشبكات التواصل الإجتماعي. واشتد الفقر والبطالة نتيجة إغلاق الأعمال والشركات والمراكز الاقتصادية. كذلك كانت القضايا النسوية وخاصةً بحث العنف المنزلي، وصحة المرأة، والتوترات الأسرية والمشاكل الناشئة عن الحجر المنزلي، تزداد يومًا بعد يوم. كلّ هذه الأمور، يتمّ تداولها وبحثها في المجال العام من قِبل المتخصصين والخبراء والنشطاء الإجتماعيين وحتى المواطنين العاديين على شبكات التواصل الإجتماعي ووسائل الإعلام.

ملخص غير كامل

لقد بدأت كلامي بالتعبير عن قلقي على مصير الإنسان ومصير ايران؛ لأنّ هذا القلق كان جزءًا من تجربتي الحيّة في الوضع المتأزم. وفي القسم الأخير من كلامي سوف أوضّح هذا القلق أيضًا. النقطة المثيرة للدهشة هي أنّ الكثيرين يشعرون بتفاؤلٍ بأنّ هذه الأزمة هي مجرد حادثة كالكثير من الحوادث سوف تنتهي عمّا قريب، وأنّ الامور سوف تعود الى سابق عهدها. وبلا شكّ أنّ الأمر كذلك، وسيتم لجم فيروس كوفيد - 19 قريبًا، ولكن آثاره الإجتماعية، والإقتصادية، والسياسية والثقافية لن تنتهي بهذه البساطة؛ والأهم من ذلك هو أنّ كوفيد - 19 ليس الفيروس الوحيد الذي يهدد العالم. فكما أنّ فيروسات سارس، وميرس، وزيكا، وآبولا وفيروسات أخرى ظهرت منذ سنة 2000 ولغاية الآن، وسوف تظهر أيضًا فيروساتٍ أخرى بعد ذلك، لم تترك بعض هذه الفيروسات الإنسان وشأنه أبدًا. وليس فقط الانفلونزا فيروس القرن العشرين، بل حتى أقدم الفيروسات لا تزال تحصد أرواح الملايين من الناس. وليبقى ببالنا أنّ الطاعون وهو أقدم الأوبئة، قد انتشر في التسعينيات في الهند ومدغشقر وفي اليمن، وقد مات حوالي 32 مليون شخص منذ سنة 1980 بفيروس الإيدز ولا يزال هذا المرض محيطٌ بأرواح الناس في جنوب أفريقيا. ويذكر آلبير كامو في روايته المشهورة، الطاعون (1947): «لا يوجد مقارنة بشرية، ولهذا يقول الناس لأنفسهم أن هذا ليس حقيقيًا، إنه حلم مضطرب سينتهي».

إنّ التفاؤل والتساهل في الأزمات وإن كان ظاهره جميل، إلا أن نتيجته مريرة للغاية. فالأمراض المعدية قد حصدت ولا تزال الملايين من أرواح الناس؛ وأحد الأسباب هو أنّنا لم نأخذ هذه الأزمة على محمل الجدّ ومثل سائر الأزمات (الفيضانات، والزلازل، والعواصف، وغزو الجراد، والأزمات البيئية، والفقر المنتشر، وعدم المساواة وتآكل الرأسمال الإجتماعي) نميل الى نسيانها. وحتى هذه اللحظة، لم يقتصر الأمر على موت آلاف الأفراد ضحايا كوفيد - 19 وتحمّل مئات الآلاف من الأفراد آلام المرض في أجسامهم، بل لقد حوّل الفقر والعنف المنزلي، الكآبة والضغوطات المميتة حياة الملايين من الناس الى جحيم. ولكن رغبتنا في النسيان قوية، فما إن تتلاشى أزمة كورونا قليلًا حتى نمحي من عقولنا كل التفكير بتغيير البنى، والأنظمة، والسياسات والسلوكيات التي «فيرست» لوّثت العالم ولا تزال. ولا

يجب على رواة القصص، وصانعي الأفلام، والمؤرخين، والصحفيين، والمواطنين النشطاء على شبكات التواصل الإجتماعي والباحثين في العلوم الإجتماعية أن يتركوا الساحة ليهيمن عليها نسياننا. فالخشية من أنّ تقوم وسائل الإعلام في اليوم التالي من هدوء الأزمة وتلاشيها بمحو ذاكرتنا الجماعية عن هذه الأزمة، من خلال بثّها لأصوات موسيقى الإنتصار.

إنّ هذه الرواية الاثنوغرافية، ليست إلا إشاراتٍ متناثرة وعرضية لمشهد الأزمة الذي نحن الآن متورطين فيه. وهذه الإشارات هي مجرد تذكيرٍ ومحاولة من أجل محاربة النسيان. وعلى الرغم من أنّني أعلم أنّه في اليوم التالي لتصنيع الدواء واللقاح لكوفيد - 19، ستكون هناك عروضًا برّاقة وصاخبة وسيغرقوننا في غفلتنا حتى ننسى ما كانت عليه هذه الأيام، ولماذا حدث ما حدث وأسئلةٍ أخرى.

ولا يعني التشاؤم أنّ العالم والمجتمع الإيراني فاقدان للقدرة والإمكانات لمواجهة أزماتهما، بما في ذلك الأمراض المعدية. إذ نحن جزءٌ من هذا العالم ويمكننا الإستفادة من إنجازات العلم والتكنولوجيا لتحسين الحياة. والعالم اليوم يشخّص الفيروسات بمساعدة الانجازات العلمية وهناك أمل بصنع دواءٍ ولُقاح لكوفيد - 19. وفضلًا عن ذلك، نحن نملك بشرًا أكثر صحة، وبيئاتٍ أكثر نظافةً، ووسائل التواصل الجماهيري والجمعي، ومجتمعٌ أكثر وعيًا واطّلاعاً، ومنظمات كبرى، وثقافة إنسانية تفيض بالعواطف والقيم الأخلاقية وروحية التعاطف. ولكن رغم كل ذلك، أصبحت بيئة العالم ملوّثة ومتضررة وضعيفة. والمجتمع الإيراني وبيئته يواجهان وضعًا متأزمًا، ونظامنا الإداري غير فعّال وهناك الكثير من التوترات والتحديات السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية والثقافية الداخلية والخارجية أمام مجتمعنا اليوم. فقد أصبح الفرد الإيراني موجودٌ مستهلكٌ في عالم مستهلك. وهذا المناخ الإستهلاكي هو الذي يخلق الأمراض الوبائية وينشرها. ويشيّر «الان دوباتن» في قراءته لرواية الطاعون لألبير كامو، الى اقتباسٍ صادم وتوعوي. إذ يكتب كامو: الطاعون «لن يزول أبدًا»؛ الطاعون «يقبع بصبرٍ في غُرف النوم، والأقبية، والحقائب، والمناديل والأوراق غير الصالحة» حتى يأتي يومٌ ما «فيحفّز الفئران ويُرسلها للموت الى مدينةٍ أهلها سعداء جدًا». وهذا ما أظنّه، إذ لا يمكن في ظلّ هذا الوضع المحفوف بالمخاطر، الإستمرار في طريق الماضي بتفاؤلٍ وبهجة. يمكن أن يكون هذا التشاؤم مرًّا، ولكن بلا شك فإنّ هذا التشاؤم أفضل من

«الوهم الإيجابي». ووفق تعبير أحد الباحثين «بدلاً من الهروب من الحياة، يمكن للمرء بمساعدة الوهم، أن يستكشف قدر الإمكان في جو خالٍ من الوهم لإيجاد المزيد من القدرة على تحمل حقيقة حياة خيالية وواقعية. وفي حال نجحت، فسوف تحرر نفسك من التفكير الإيجابي الخاطئ وسلاسله».

إنّ الرواية التي قدّمتها الآن حول الأبعاد الثقافية للوضع الحالي لأزمة كورونا، لم تلتفت الى كتلة كبيرة من التحديات السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي أصبحت أكثر شدّة في ظلّ هذا الوضع، والتي يمكن أن تترافق مع آثارٍ مدمّرة في المستقبل. لذا يجب علينا في ظلّ هذا الوضع المتأزم أن نأخذ بعين الإعتبار الآثار الطويلة الأمد لأفعالنا. ولا يجب في بحثنا عن الخياراتٍ البديلة، أن يقتصر سؤالنا فقط عن كيف يمكن التغلّب على هذا الخطر الحيّ والحاضر، بل يجب أن نسأل أنفسنا ما هو نوع الحياة الذي نوّد العيش فيه بعد حلّ الأزمة.

إن الأمر الذي يزيد بشدّة من شكوكي ومخاوفي هو بالضبط بدائلنا لعالم ما بعد الكورونا. وهذه الشكوك والمخاوف، إذا لم أقل أنّها منتشرة بين الجميع في هذه اللحظة، فإنّها بالحد الادنى منتشرة بين أكثر أفراد شعبنا. وهكذا، أُنهي هنا هذا البحث بشعورٍ مليءٍ بالقلق، وآمل ألا تكون مخاوفي واقعية!